أربعون سبباً
من أسباب سقوط الأندلس

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م


دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة: ٧ ش السراى - أول المنيل ت . فاكس: ٩٨٧٩٢٤
الفرع: حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

أربعون سبباً
من أسباب سقوط الأندلس

د / عبد الحليم عويس

إهـــداء

- إلى أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة الخائن!!.
الذي بكى مثل النساء ملكاً لم يحفظه حفظ الرجال!!

- لأنه تجاهل سنن الله وطبائع الأشياء وثوابت الإسلام...

- ولأنه تغافل -عامداً- عن كلمات الله التي كانت تقرع سمعه كل صباح ومساء:
«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»

إليه.. وإلى تلامذته المنتشرين في بقاع كثيرة من عالمنا الإسلامي المعاصر...

إلى هؤلاء: «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»...!

إليهم أقدم بعض دروس الأندلس...

فلعل «واحداً» منهم يعود -مخلصاً- إلى قراءة كتاب الله... وقراءة التاريخ!!

عبد الحليم عويس

مجمـــل
أسبـــاب سقـــوط الأندلـــس

- مضت خمسمائة سنة ميلادية الآن (١٤٩٢-١٩٩٢) على سقوط غرناطة، وعلى طرد المسلمين من سائر شبه جزيرة أسبانيا (الأندلس الإسلامية) ولم يلتفت المسلمون إلى معطيات هذا الدرس.. بل لم يقفوا عنده!!

- والدرس كله منذ فتح إسبانيا على يد المسلمين بربراً وعرباً سنة ٩٣هـ (٧١٠م) وحتى سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) لم يدرس وفق سنن الله الكونية والاجتماعية في قيام الأمم وسقوطها -بل حوله العرب- بخاصة- والمسلمون- بعامة- إلى صفحة من المجد والازدهار يتغنون بأمجادها في كتب التاريخ المدرسي التي يغلب عليها الابتسار والتلفيق!!...

- ولقد بدا الأمر وكأن العرب طردوا من الأندلس بلا أسباب!!

- وكأن سنن الله كانت بعيدة عنهم فلم يكن سقوطهم عقاباً من الله، بل كان سقوطهم لمجرد توحد أعدائهم وتمزق صفوفهم وتفرق كلمتهم. لكن: لماذا تمزقوا وتفرقوا ؟

- لا أحد يجيب على هذا السؤال، مع أن تمزق أية أمة وتنافرها إنما هما نتيجة أخيرة لأمراض استبدت بعقول أبنائها وقلوبهم، حتى أصبحت العقول ترجمة لمناهج متناقضة يهدم بعضها بعضا، وأصبحت القلوب أوعية مريضة بالحقد والكراهية، لا يجمعهما

فقه واحد ولا حب منسجم ولا هدف كريم!!

إنني لا أستطيع أن أذكر باستقصاء الأسباب الحقيقية التي تمنع العرب والمسلمين المعاصرين الذين يمرون معنا بهذا العام الميلادي (١٩٩٢م) من القيام بعقد خمسين ندوة لدراسة مأساة سقوط الأندلس....!!

ولو كان الأمر بيدي لأمرت بأن تقرر مادة دراسية عن (سقوط الأندلس)، وعن نظائره من دروس السقوط الموجودة بشكل أو بآخر.. في المساحة الفسيحة لتاريخنا الإسلامي زمانا ومكانا...

* ما الذي جرى لنا في الهند حتى أصبح المسلمون أقلية بائسة مضطهدة ؟
* ولماذا سقطت خلافة آل عثمان؟
* بل لماذا ضاعت صقلية وقبرص ورودس؟
* ولماذا تخلفنا علميا وقد كنا علماء الدنيا وأساتذتها ؟
* ولماذا أصبحنا ندخل الحروب لنهزم؟
* ولماذا أصبحت حروبنا بيننا نحن المسلمين أضعاف الحروب التي بين السلمين وأعدائهم؟
* ولماذا أصبحنا نحو خمسين دولة ؟
* وإلى متى نظل ممزقين متخلفين ندفع دائما الثمن الباهظ في كل تحولات السياسة الدولية، قبل الشيوعية، وأثناءها، وبعدها، ونخدع أنفسنا بآمال معسولة تخديرية نعلم -يقينا- أنها سراب وخداع.... ونصدقها!!

* * *

لقد قامت إسرائيل بدراسة أسباب سقوط الأندلس وأسباب

نجاح المسلمين في معركة حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وقد جعلت من نتائج الدراستين مقررات سرية يمنع تداولها .... فهل نطمع أن يقوم الحكام والمفكرون المسلمون بدراسة نتائج دروس تاريخهم مثلما فعلت إسرائيل؟!!

أم أن هذه الدروس ستبقى حكرا على إسرائيل والدول الكافرة، بينما نغط نحن المسلمين في سبات عميق، أو نخدر بأوهام التركيز على الصفحات المضيئة في تاريخنا، تاركين الصفحات الأخرى السلبية والمأساوية، مع أن الله سبحانه وتعالى عندما قص علينا تاريخ الأمم السابقة بين لنا أن المهم ليس السرد التاريخي، بل المهم استيعاب الدرس والعبرة، وبالتالي الإيمان -الفكري والسلوكي- بالسنن الإلهية في الكون والمجتمع، والإيمان بوحدة المصير عندما تتوافر شروط السقوط:

- **«قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون»**
- **«فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم»**
- **«قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين»**
- **«ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين(١)»!!**

إن الآية القرآنية -وهى إحدى الآيات الكثيرة المتصلة بسقوط الحضارات- تحثنا من خلال الأمر الإلهي على النظر الثاقب المرتبط بإرادة التغيير- أى بالإيمان... وهى تبين لنا أن النظر المغرور المتثائب المجرد من الإيمان لن يقود إلى الحق... بل لن تغني عنه النذر المادية شيئا.

---

(١) يونس ١٠١- ١٠٣

والعاقبة بعد الصبر والانتظار والإمهال للكافرين والابتلاء للمؤمنين - أن تتحقق لكل الحضارات... في ظل الشروط المتماثلة النتائج المتماثلة والعاقبة الواحدة.. هلاكا ومحقا للكافرين المغرورين المنحرفين... ونجاة للمؤمنين الذين اعتبروا وآمنوا وارتبطوا بسنن الله وأوامره!!

- ترى هل يدخل درس الأندلس ضمن دلالات هذه الآية فيصبح المسلمون من هذا الصنف المتثائب المغرور الذي لا تغني عنه الآيات والنذر شيئا...؟

- وبالتالي هل نقف نحن المسلمين على مشارف كوارث كبرى تحيق بنا مثل تلك التي حاقت بالذين خلوا من قبلنا...؟!!

للسقوط أسباب كثيرة لاسبب واحد

يخضع سقوط الأمم لأسباب كثيرة وليس لسبب واحد محدد..

ونستطيع أن نقول إن هناك أسبابا أساسية جوهرية وأخرى مساعدة على السقوط..

كما أننا نستطيع القول إن هناك أسبابا عامة وأسبابا خاصة، فالأسباب العامة هى التي تتصل بسنن الله الكونية والاجتماعية ويتساوى فيها كل البشر صعودا أو هبوطا، والأسباب الخاصة هى التي تتصل بالقسمات المميزة لكل أمة، وبطبيعتها الحضارية وتراثها الخاص، وبمستوى التحديات البيئية والنفسية والفكرية التي تحيط بها، والتي توجب عليها التكليف الخاص الذي يؤهلها للاستجابة الملائمة للتحدي!!

ولكي ترصد الأمة أو الحضارة في مرحلتها التاريخية -موقعها وحقيقة قدراتها ، ومستوى تفاعلها ، ومن ثم تبصر ملامح مستقبلها القريب والبعيد- فإن عليها أن تجمع في وعيها ومواجهتها الحضارية بين السنن العامة والعوامل الخاصة- ومن السذاجة إخضاع كل الأمم والحضارات للأسباب العامة وحدها ، أو للأسباب الخاصة وحدها . . . كما أن من الغباء المفرط المساواة بين الحضارات أو الزعم بالواحدية الحضارية ، فالسنن النفسية والامتداد الفكري والتراثي ، والتأثير البيئي والوراثي البيولوجي يختلف بين أمة وأخرى!!

* * *

وعندما نرصد التجربة الإسلامية في الأندلس بهذه الرؤية الحضارية الشاملة المستوعبة للعوامل العامة والخاصة- نقع على أسباب كثيرة تفسر لنا أسباب سقوط غرناطة بخاصة والأندلس بعامة . . .

فمن أسباب سقوط الاندلس :

١- غلبة العوامل العنصرية من قبلية وقومية على وشيجة الإسلام والأخوة الإسلامية .

(يلاحظ الصراع بين العرب والبربر وبين العدنانيين والقحطانيين وبين العرب والمولدين)

٢- ضعف العقيدة الإسلامية في النفوس والضمائر وتطويعها لخدمة القومية و العنصرية والوطنية .

(يلاحظ تواطؤ العرب جميعا في بعض المواقف ضد البربر جميعا ، وكذلك تواطؤ البربر جميعا ضد العرب وهكذا)

٣- تغليب المصالح على المبادىء، وبالتالي التحالف مع أعداء الإسلام ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة والمصير.
(يلاحظ مواقف ابن هود في سرقسطة وأبى زيد ملك بلنسية وابن الأحمر في غرناطة ومعاهدات هؤلاء مع النصارى ضد إخوانهم المسلمين)

٤- إلغاء الخلافة الجامعة وظهور الطوائف التي تغلب الحكم الطائفي الخاص على المصلحة الإسلامية الواحدة وتتنافس في البروز الطائفي لمواجهة بروز الآخرين.
(كان ابن حزم يقسم بأن ملوك الطوائف هؤلاء لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لعبدوها)

٥- تخلي جمهرة من العلماء والدعاة عن رسالتهم وخيانتهم للإسلام عقيدة وحضارة وانغماسهم في متابعة الظالمين، وقد انحطت مكانة الفقهاء انحطاطا كبيرا (١) ويعتبر الفقيه (ابن البقني) مثلا صارخا للخيانة حين تعاون مع ملكي قشتالة وأراجون لإتمام تسليم غرناطة

٦- التكاثر المادي وتبديد طاقة الأمة في بناء القصور المترفة والمساجد المتحفية ووسائل الزينة والراحة والدعة.
(ونذكر هنا زهراء الناصر وزاهرة ابن أبي عامر وحمراء بني الأحمر) وهي مجرد أمثلة!!

---

(١) مما قيل في تصوير انحطاط الفقهاء قول الشاعر:

الكلب صار ببسطة ... أغلى وأشرف من فقيه
أني فقيه يعتلي ... لمحله أو يرتقيه

(والبيتان لابن عبد الكريم القيسي)

٧- فساد القلوب والضمائر وانتشار الأمراض القلبية من حقد وبغضاء وآفات اللسان من غيبة ونميمة، وكل ذلك نتيجة لتفكك نسيج الأخلاق الإسلامية وضعف العقيدة وذيوع الهوى والتكالب المادي وعبودية الدنيا والزهد في الآخرة.

(وقد حدثت أحقاد كثيرة في مستوى الوزراء والفقهاء والشعراء وهي مذكورة بالتفصيل في المصادر التاريخية والأدبية، ولا سيما في عصري الطوائف وغرناطة).

٨- انتشار اللهو والغناء والموسيقى والانحلال والخمور وشتى صور الفساد.

(وقد حاول بعض المصلحين من أمثال أبي الوليد الباجي، والإمام أبي محمد بن حزم وابن عبد البر إصلاح الحكام ولم ينجحوا، بل كان ظلهم ثقيلا عند الحكام)

٩- الاستهانة بالدماء مما سبب معارك ضارية بين المسلمين من أجل نزوات الحكم وشهوات النفس ودوافع العنصرية....

(لنلاحظ هنا عصري الطوائف الأول قبل الناصر، والثاني بعده ثم حروب غرناطة الداخلية)

١٠- فساد النظام السياسي وقيامه على الحكم المطلق البعيد عن الشورى، وعن العدل مما أصاب الأمة بالظلم وعدم الولاء وهما بداية خراب الممالك....

١١- إبطال فريضة الجهاد ضد أعداء الإسلام وإخضاع الأمة لمعاهدات استسلام وولاء للنصارى ضد المسلمين لمصالح سياسية، بل منع الأمة من الجهاد ضد الأعداء وتوجيهها ضد

المسلمين في معارك حدودية وعنصرية....

١٢- خيانة بعض العلماء والحكام للمسئولية الإسلامية العامة، وعلى مسمع من هؤلاء جميعا سقطت معظم المدن الأندلسية في ثلاثين سنة (٦٢٧-٦٥٠هـ) وكانت الظروف تسمح بالتدخل وتفرضه....

١٣- للنساء نصيب في سقوط الأندلس وقد تدخل بعضهن في شئون الحكم فنشرن البغضاء والصراعات من وراء الكواليس.

كما نشر بعضهن الفساد والانحلال، ومنهن ولادة بنت المستكفي التي كانت تقول شعرا تتبجح فيه قائلة:

وأمكن عاشقي من صحن خدي

وأعطي قبلتي من يشتهيها

- دون مبالاة بأخلاق المجتمع، والشريعة التي من المفترض أن تحكمه...
- كما كان للنساء النصرانيات المتزوجات من أبناء الأسر الحاكمة دور بارز في الفساد، وقد اغتيل بتأثير مؤامرتهن أبو الوليد إسماعيل وهو من أعظم حكام غرناطة.. كما أن زواج أبى الحسن (العاق لوالده) من ثريا (ايزابيلا) أفسد الأمور كلها...

١٤- المعاهدات السرية التي كانت تبرم مع النصارى بعيدا عن الشعب، وفيها من صور الخيانة الكثير، وأكثر ما تضمن تنازلا عن كور أو قلاع وتعاونا مع النصارى ضد المسلمين..

وقد تجلى هذا الأمر الزري في ملوك غرناطة بخاصة ولا سيما في عصرها الأخير.

١٥- تعويق حركة الدعوة بالوسائل الدعوية المعروفة والمتدرجة، والاعتماد على الحروب من أجل الدولة لا الدعوة. وقد انتصر المنصور بن أبى عامر في سبع وخمسين غزوة (حروب دولة) ومع ذلك سقطت الأندلس في مستنقع عصر الفتنة والطوائف بعد وفاته بأقل من عشر سنوات.. لقيام حكمه على دكتاتورية الدولة، وعلى الاستبداد، كما أن ملكه قام على الدماء وتصفية الخصوم بطريقة لا إسلامية ولا أخلاقية، كما أنه أحدث شللا واختراقا لكيان الخلافة الأموية، فلم تنتفع الدولة من حروبه وانتصاراته المصلحية....

١٦- تجلي الدور الخياني لبعض العائلات المعروفة مثل عائلتي بني سراج وبني أشقيلولة اللتين استمرتا على تواطؤهما مع النصارى لتحقيق مآرب مصلحية ضد عائلة بني نصر في غرناطة...

١٧- قيام بعض أمراء بني نصر برهن أبنائهم لدى النصارى مقابل الوصول إلى الحكم... وقد شكل هذا السلوك الإجرامي المصلحي ضغطا شديدا وأدى الى التسليم بامتيازات كثيرة للنصارى....

١٨- الاستهانة بالأعداء أثناء فترات القوة، وأبرز مظهر لهذا الخطأ استهانة المسلمين خلال فترة الفتح الأولى بمنطقة كفادونجا (صخرة بلاى) وكانت مثل إسرائيل جرحا سرت سمومه إلى الجسد كله، ومن ذلك استهانة المسلمين بسقوط طليطلة مع أن هناك فترات سمحت باستردادها أيام المرابطين والموحدين وبعدهما.

١٩- وكان انتشار المخدرات والخمور سببا في قيام صراعات مريرة

في غرناطة كان من نتائجها تسليم أحد سلاطين غرناطة نفسه لأعدائه النصارى وهو السلطان أبو سعيد البرميخو عليه لعنة الله!!!

٢٠- أدى طمع الوزراء في السلطة واستبدادهم بها الى قيام الوزير خالد (وزير السلطان يوسف الثاني) بقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة سعد ومحمد ونصر حبا في السلطة دون وازع من دين أو ضمير أو خلق.

٢١- ويعد عقوق الأبناء للآباء من أهم أسباب السقوط، ومن ذلك عقوق الأمير أبي الحسن (على بن سعد ٨٦٩-٨٨٧هـ) لوالده سعد بن على (٨٦٠-٨٦٩) وقيامه بخلعه تحقيقا لمؤامرة بني سراج الطامحين في الحكم مما أدى إلى تدخل النصارى.

لكن هذا لا يعني أن والده سعد بن على كان مخلصا، فقد كان عقوق ابنه له انتقاما من الله منه، فإنه وصل إلى الحكم بمساعدة ملك النصارى هنري الرابع وبني سراج الخونة سنة ٨٥٩هـ، كما أنه قدم ابنه أبا الحسن وسبعين فارسا رهينة لهنري ملك قشتالة ليساعده ضد محمد الحادي عشر سلطان غرناطة الشرعي.

وبناء على هذا فقد وضع هنري الرابع لجيشه خطة تقتضي تدمير قرى المسلمين الحيوية. واستمر النصارى ثلاثة أسابيع في حرق القرى والمحاصيل الزراعية من أجل إفقار غرناطة وسلطانها على المدى الطويل.... وكل ذلك بسبب حماقة سعد بن علي وموالاته للنصارى واستعانته بهم..

٢٢- تركيز الفقهاء والمفكرين على الجزئيات والفروع مع ضيق

الصدر وسرعة التكفير على حساب الكليات والمقاصد والغايات ووسائل توحيد الأمة ، وكأن الأصل هو التفرق لا الأخوة والوحدة .

٢٣- كثرة الثائرين والمتمردين نتيجة غياب الشورى والعدل وغياب المؤسسات الإسلامية الكفيلة بتحقيق المساواة بين الجميع -كانت- كذلك- من أسباب سقوط الأندلس، ويكفي للاستدلال على تأثير هذه الثورات التخريب الذي أحدثته ثورة عمر بن حفصون بين عامي ٢٦٧- ٣٠٥هـ ، وقد بقى أولاده ثائرين من بعده الى سنة ٣١٦هـ حين استولى الناصر على قلعة ببشتر والجنوب...

وفي عصر الطوائف الأول استمرت الثورات في عهد محمد بن عبد الرحمن وابنه المنذر وعبد الله بن محمد ، وكذلك وجدت الثورات خلال العهد الأموي كله وعهد الطوائف الثاني...

٢٤- ومن الأسباب أيضا انحراف شيوخ الغزاة المجاهدين عن أهدافهم ومسارهم الجهادي وطمعهم في عرض الدنيا واعتقالهم السلطان محمد الرابع وهو من أعظم سلاطين غرناطة .

٢٥- وكان لنظام ولاية العهد الوراثي حتى مع عدم الجدارة -أثره الخبيث في سقوط الأندلس. وأكبر مثل نقدمه هو تولية الحكم بن عبد الرحمن الثالث (الحكم المستنصر المتوفي سنة ٣٦٦هـ) لابنه هشام الذي لم يبلغ الحلم والمتخلف عقليا ، فكانت ولايته سببا في مصائب كثيرة ارتكبها باسمه المنصور بن أبي عامر وأم هشام صبح، بل تعتبر ولاية هشام هذه أبرز أسباب سقوط بني أمية في الأندلس.

٢٦- ومن نتائج ضعف العقيدة والإيمان ضياع الغيرة وفقدان الولاء للإسلام وهبوط الشعور الإسلامي العام. ومن أمثلة ذلك إرسال أبى عبد الله الصغير تهنئة لملك النصارى بمناسبة استيلائه على مدينة (مالقة) الإسلامية. كما أن جيوش ملك قشتالة استولت على قرطبة في ٢٣شوال سنة ٦٣٣هـ بمساعدة كتيبة أرسلها ابن الأحمر، كما أن ابن الأحمر تنازل طواعية عن دانية وأرجونة وجيان وبيع الحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة. ومن جرائم ابن الأحمر أيضا مساعدته للنصارى بكتيبة من كتائب جيشه عند استيلائهم على أشبيلية . وقد سقطت حول أشبيلية عشرات المدن والقرى الصغيرة دون قتال بفضل تدخل ابن الأحمر ومنعه هذه المدن والقرى من القتال بدعوى عبث المقاومة، ومن أجل عيون غرناطة التي كان يحلم بها ولو على أشلاء كل المدن الأندلسية، فقامت غرناطة على أسس ليست التقوى والأهداف الاسلامية من بينها، فكان مصيرها معروفا لمن يدركون سنن الله.

٢٧- اختراق اليهود والنصارى للقلب الإسلامي وسيطرتهم على بعض مواقع التأثير، وقد تجرأ اليهودي ابن النغريلة... وهو وزير فكتب كتابا يقدح فيه في الإسلام، ورد عليه ابن حزم، كما أنه نجح في غرس اليهود في كثير من المواقع خلال فترة وزارته...

٢٨- ولم يترك المسلمون في الأندلس الجهاد فقط على أساس أنه فرض عين وكفاية عامة، بل تركوا معه الإعداد للجهاد، ولوسائل الجهاد المادية والمعنوية، وتحولوا الى جيوش نظامية متخلفة هدفها الحفاظ على الأسرة الحاكمة، ولئن كان ترك الاستعداد الحربي للدولة يعني ضعف قوتها المادية فإنه يعني كذلك عدم شعورها بمسئوليتها الدفاعية وبأنها تضع مصير شعبها تحت رحمة غيرها... فضلا عن أن يكون هذا الغير هو عدوها...

٢٩- إسناد المناصب المالية والإدارية والقيادية والفكرية في الدولة إلى أهل الثقة والولاء للنظام والدولة، وليس للمنتمين لعقيدة الأمة وحضارتها وأهدافها... وكان هذا السلوك بطبيعة الحال تعبيرا منسجما مع نسيج النظام السياسي القائم على العصبية الواحدة التي تحتكر الحكم والمال والتوجيه وترفض الحكم بالشورى والقيم الإسلامية.. وبالتالي فقد انكمشت الكفايات وامتد أهل النفاق وانكسر أهل العلم والفقه الحضاري، وانتعش أهل الشعر والأدب والفنون!!

وأسند الأمر الى غير أهله!!

٣٠- وكما كان التكالب على الغنيمة السبب المباشر في أول هزيمة للمسلمين في تاريخهم في غزوة أحد، كذلك كان التكالب على الغنائم السبب المباشر في هزيمة المسلمين في الأندلس في أكبر موقعة حاولوا بها عبور جبال البرانس (جبال البرتات) وتجاوز الأندلس إلى بلاد الغال (فرنسا) وكان ذلك سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) في موقعة (بلاط الشهداء) بقيادة عبد الرحمن الغافقي وهي المعركة التي تعتبر بحق إحدى معارك التاريخ الفاصلة، وكانت منعطفا جديدا في تاريخ الإسلام في الأندلس...

وكانت الغنائم والمجد الدنيوي هي الهدف الأسمى لحروب عبد الرحمن الناصر والمنصور ابن أبى عامر، ولذلك لم تكن لحروبهم أية ثمرة باقية بل انتهت نتائجها بانتهاء عهودهم!!

٣١- ويعتبر التفكك السياسي الذي ساد الأندلس نتيجة انفراط عقد الخلافة الأموية الى اثنتين وعشرين دولة (طائفة) سببا مباشرا في السقوط، وقد حفل عصر الطوائف هذا بمظاهر سقوط كثيرة

وشنيعة تولدت من التفكك السياسي وما نجم عنه من مظاهر التنافس الرخيص والقتال الداخلي والمجون والعبث!!

لقد انتثر عقد الأندلس بين عناصر متصارعة هي : (البربر) في الجزء الجنوبي ، (والصقالبة) في القسم الشرقي ، (والعرب) في باقي الأندلس...

ومن هذه الممالك المتصارعة المتنابذة :

أ-موالي العامرية (في الشرق الأندلسي) ويندرج تحتها حكم (خيران العامري) للمرية ومرسية ، و(مجاهد العامري) لدانية والجزائر (٤٠٠ -٤٦٨هـ) إلى أن ضمها بنو هود الى ملكهم.

ب- بنو زيري (في الجنوب) في غرناطة ومالقة ، ثم توسعت فضمت قبرة وجيان ومالقة ، وبنو الأفطس أصحاب بطليموس ، وبنو ذي النون في طليطلة ، وبنو رزين أصحاب السهلة .

جـ- بنو عباد أصحاب أشبيلية (٤١٤- ٤٨٤هـ) الذين أصبحوا أكبر دولة من دول الطوائف وبنو هود أصحاب سرقسطة ، وبنو القاسم الفهريون في البونت ، وبنو حمود الحسنيون بالجزيرة .

د- بنو جهور (موالي الأموية) في قرطبة ، وتشمل إمارتهم مدناً أخرى مثل جيان وبياسة وآند وقد سقطت قرطبة بعد ٤٠سنة من حكمهم في يد بني عباد وزالت بالتالي دولة بني جهور. ولقد وجد في حكمهم لهذه الامارات نوع من التنافس على السلطة والتوسع على حساب بعضهم واتخاذ الألقاب والنعوت ، بما استجلب نوعا من السخرية منهم ، وقد شوهد من بين حكام هذه الإمارات ست دول يحمل رئيس كل منها (لقب ملك) وهذه

الدول هي

قرطبة، وأشبيلية، وقرمونة، واستجة، ومالقة، والجزيرة الخضراء، وغرناطة. وكان استقلال هذه الإمارات استقلالا شكليا (يشبه استقلال كثير من الدول الإسلامية في العصر الحديث)...

أما من ناحية ما تنتهجه هذه الإمارات من سياسة وادارة فليس بينها تفاوت يذكر، فكلها كما يقول ابن حزم: (نظم مستبدة مستهينة بالدماء، مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه) وعوضا عن أن تتحد قواهم في مواجهة عدو صليبي مشترك تشتتوا وتقاتلوا حتى ضعفت قواهم، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات النصارى، كذلك كانت حروبهم الداخلية سببا في أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين، مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدأوا.... من هذا العصر الشاذ.. رحلة الاسترداد الطويلة الكئيبة..

وفي ضوء هذا نقول: إن هؤلاء الحكام وهذه الدول التي ورثت الخلافة الأموية تتحمل الوزر الأكبر في وضع بذور سقوط الأندلس(١)...

---

(١) وعلى خطاهم تمشي في عصرنا -للأسف الشديد- كثير من (الدول المستقلة!!) التي ورثت الخلافة العثمانية!!

٣٢- مؤامرات النصارى ومخططاتهم ومتابعتهم لأحوال المسلمين واستغلالهم للثغرات وفترات الضعف ونشرهم الأفكار الانهزامية والهدامة بينهم، مما يدفع إلى اتباع المسلمين لمناهج حياتهم وعاداتهم حذوك النعل بالنعل (حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه) ... كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم..

وفي تجربة الأندلس وضع النصارى في شتى العصور تخطيطهم على أسس ثلاثة ثابتة لم تتخلف قط:

أولها: العمل على تفريق كلمة المسلمين وضرب بعضهم ببعض حتى تذوب معالم العقيدة الجامعة بينهم ويصبح الولاء للمصلحة وليس للإسلام!!

ثانيها: العمل على وحدة كلمة النصارى، بمؤازرة من الدول الأوربية وبمباركة من البابا.. وكان اتحاد مملكتي قشتالة وأرجون هو التتويج العملي النهائي لجهود الوحدة..

ثالثها: الغدر الدائم بالعهود والمواثيق، واعتبارها مرحلة تمليها الظروف وفي خلالها يتم إتخاذ إجراءات وضغوط من شأنها إضعاف الطرف المسلم والتمهيد للوثبة الصليبية التالية.

٣٣- قيام أكثر الحكومات الأندلسية، ولاسيما في عصور الطوائف، على قاعدة (الظلم) المؤذن بخراب البلاد ونفور العباد، وقد أدى انتشار الظلم إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، وإلى كثرة الدسائس والفتن والانقلابات الدموية في سبيل السلطة، كما أدى إلى كثير من الثورات الشعبية، وإلى تطاحن الطوائف المسلمة، وإلى كراهية العرب نتيجة استئثارهم بالمال والسلطة واعتقاد أكثرهم أن ذلك حق لهم عدلوا أو لم يعدلوا، كانوا أكفاء أو لم يكونوا.

وكأن الإسلام ميراث ورثوه عن آبائهم، يمنحهم سلطة عرقية كهنوتية، وليس دينا جاء بالعدل والمساواة والرحمة لكل البشر!!

٣٤- وكان من أهم عوامل السقوط قاطبة، أن أكثر الناس (عمليا أولا وفكريا ثانيا) نتيجة ضغوط المذاهب العقلانية والفلسفية

الوافدة.. قد فقدوا -حقيقة- الميزان الذي يحتكمون إليه وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة (على صاحبها السلام) فأصبح كل منهم يبحث عن إسلام نصراني لاهوتي يسمح له بممارسة الحياة البهيمية والمادية التي ترضيه، ولامانع -عند ذلك- من صيام رمضان وأداء الصلوات والحج وحضور الاحتفالات للقرآن والسنة (باسم التقدمية)، والانفتاح على ممالك الشمال النصرانية المتحدة المتقدمة، وبعضهم كان يحاول الجمع بين الإسلام والنصرانية تحت مسميات تشبه مسميات عصرنا مثل (الوحدة الوطنية) و (العلمانية).

٣٥- ولأن التلازم قائم بين السنن الاجتماعية والأخلاقيات والأحكام الشرعية الضابطة، فمن البديهي أن الوضع السائد في الأندلس، ما كان يسمح بالإبداع العلمي والعملي الزراعي والصناعي كما ينبغي.... وبالتالي جمدت الأندلس عند مستوى معين وعاشت تدافع الأحداث ولا تسبقها، ولا تفكر في التخطيط لمستقبل مشرق، بل حسبها أن تلم شملها، وتقضي على الفتن والأمراض التي تنشأ بين الفينة والفينة لغيبة الشريعة والسنن الأخلاقية والاجتماعية عن ساحة الحياة وحركة النظم والفكر.

- قال المستشرق (كوندي) (١): (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل الى الخفة، والمرح، والاسترسال بالشهوات).

وسئل الأستاذ شوقي أبو خليل عن سبب ضياع الأندلس فقال:

«دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك، وعزيمة طارق بن زياد، وايمان موسى بن نصير، وطموح عبد الرحمن الغافقي، وبطولة السمح بن مالك الخولاني، وتجدد الإسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين.

بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله، وضاعت الأندلس لما أضعنا طريق الله.

بقينا في الأندلس بهمة عبد الرحمن الداخل، الذي قال لما نزل من

(١) شوقي أبو خليل: عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص ١١٠ دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ دمشق.

البحر إلى بر الأندلس، وقد قدم إليه خمر ليشرب، فأبى وقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه، فعرف الناس من ذلك قدره، ثم أهديت اليه جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهمتي، فلا حاجة لي بها الآن فقالوا: إن الأمير ذو همة.

مرت الأيام، ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم، متناسين من يمكر بهم، ومن يجمع صفوفه لسحقهم. كان عدوهم يستعد عسكرياً، ويوحد كلمته، وهم في موشحاتهم وسماعهم وخمرتهم وترفهم مخمورون...

دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور: الله أكبر، ذلك النشيد الذي لامس سمع الزمان فترنم لعذوبته، وصدقه وجلاله.. فكان الله ورسوله مع طارق، لقد أخذت طارقا سنة من نوم وهو يجتاز المضيق الى أرض الأندلس، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فيقول له رسول الله: يا طارق تقدم لشأنك، ونظر اليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه.

وخرجنا منها لما صار نشيدنا:

دوزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا!

- إنها فوضى أخلاقية، وخيانة للقيم الإسلامية، فكيف لا يكون السقوط نتيجة طبيعية.

٣٦- وفي ظل هذه الفوضى جنحت الأمور إلى التكثيف في جانب

على حساب جانب، وضاع التوافق والتكامل الذي حققه الإسلام بين الوحي والعقل والفرد والمجتمع والذاتية والغيرية، كما ضاع ترتيب الأولويات، وقد حورب العقل في كثير من الفترات كما صودر حق الاجتهاد وأحرقت الكتب تملقا للعامة وتعرض الإسلام لتفسيرات خاصة تجنح به طورا الى العقل المجرد وطورا الى العاطفة البحتة.

٣٧- ولا شك أن التعصب للرأي أو للفقه أو للمذهب أو للجنس أو للوطن كان سمة من سمات المجتمع في كثير من الفترات، وهو تعصب جاهلي يصادر حقوق الآخرين ويعتدي عليها ويقف ضد التوازن والعدل، ونتيجة لهذا التعصب ظهرت حروب كثيرة في داخل المجتمع الأندلسي ولم يقدم السلوك الإسلامي كما ينبغي، وقد ظهرت جراثيم التعصب منذ عصر الولاة فبدأ تاريخ المسلمين في الأندلس -للأسف الشديد- بفتن ومنازعات استمرت لأكثر من ثلاثين سنة، حتى استطاع عبد الرحمن الداخل أن يقيم دعائم الدولة الأموية الأندلسية سنة ١٣٨هـ، ثم تفجرت الحروب بعد ذلك في عصر الطوائف بين الأجناس المختلفة وذلك بتأثير التعصب أيضاً.

٣٨- ولقد كانت أرجون وقشتالة وممالك الشمال تشبه إسرائيل، فهي سرطان في جسم الأندلس. وكان الوعي الاستراتيجي يوجب أن يظل الهدف الأندلسي الثابت هو طرد هذه القوى، وتوحيد الأندلس طبيعيا وجغرافيا حتى تصبح جبال البرانس (البرتات) فاصلا طبيعيا وجغرافيا حقيقيا، ولكن هذا لم يحدث، وهذه خطيئة كبرى وقع فيها مسلمو الأندلس، مثلما يقع مسلمو العصر الحديث في خطيئة مهادنة السرطان اليهودي، بل إن النصارى

تقدموا فاحتلوا طليطلة قلب الأندلس، ولم يستطع المرابطون استعادتها على الرغم من انتصارهم في الزلاقة سنة ٤٧٩هـ، فاتسع الخرق، وأصبحت الأندلس في موقف الدفاع الهزيل.

٣٩- وكما تقف أمريكا والدول الأوربية الآن وراء الكيان اليهودي تدفعه للامتداد وتغذيه وتقويه وتجعله -مع عدده القليل- مساويا في القوة للعرب الذين يزيد عددهم عن عدده خمسين ضعفا- كذلك كانت أوربا تقف وراء مملكتي قشتالة وأرجون، مستخدمة وسائل دبلوماسية وكنسية وعسكرية، وكان العرب في الأندلس يخدعون أنفسهم، وتخدعهم الأماني، مثلما ينخدع عرب اليوم تماما.. والتاريخ يعيد نفسه، وبالتالي فكما كانت ممالك الشمال من أسباب سقوط الأندلس كذلك كانت أوربا الصليبية من العوامل المساعدة على هذا السقوط.

٤٠- ونستطيع أن نقول -كذلك-: إن مجموعة العوامل العامة لسقوط الدولة الإسلامية شجرة انبثقت عنها العوامل الخاصة التي أفرزتها التجربة الأندلسية!!

إن ضعف الفقه الحضاري، وغياب الوعي بسنن الله الاجتماعية في تقدم الأمم وسقوطها كانا وراء انحدار الأمور في الأندلس على مستوى الحكام والمحكومين... وكلا المستويين يتحملان تبعة هذا السقوط، وقد دفع الجميع الثمن غاليا...

* * *

وكان من نتيجة هذا الضعف ظهور تلك العوامل العامة التي رصدها العلامة المؤرخ أبو عبد الله محمد جعفر الكتاني في كتابه (نصيحة أهل الإسلام) "انظر الملحق المرفق" فوقع اختلاف كلمة

المسلمين فيما بينهم وتشيعوا أحزابا في داخل الأندلس المسلمة المحاطة بالأعداء، وأهملوا الاستعداد الحربي بل تركوا الجهاد كله وأصبحت المعارك بعيدة عن معاني الجهاد، فهي في الخارج معارك دولة لادعوة، وهي في الداخل صراع على السلطة، أو معارك للاستعلاء العنصري... وقد أسندت الأمور إلى غير أهلها في شئون الدين والدنيا، ووضع أهل الولاء والثقة في المناصب بدلا من أهل الكفاية والأمانة، وقد وقعت الموالاة للكفار والمعاداة للمسلمين خضوعا للمصالح والأهواء، واتبعت عوائد الكفار وتقاليدهم وقوانينهم حذوك النعل بالنعل، وأصبح الحكام وبطانتهم وعمالهم جبابرة ظالمين فانهارت الشورى وانهارت العدالة، وكثر الاشتغال باللهو والطرب وتبديد الأموال وبناء القصور وأصبح التجاهر بالمنكرات شائعا، كما خفت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح القرآن والسنة الشريفة غريبين عن أهل الأندلس في كثير من العصور... نعم في كثير من العصور، وليس في الحقبة الأخيرة التي سقطت فيها غرناطة فقط، فابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب يحكي لنا صورة من صور عصر الطوائف- أي على مشارف القرن الخامس الهجري وقبل أن تسقط الخلافة الأموية سقوطاً رسمياً- يذكر فيها أن أهل قرطبة بلغ من استخفاف بعضهم بالإسلام في الفتنة التي وقعت أيام ابن عبد الجبار -أن رجلا نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فنال من النبي -صلى الله عليه وسلم- بألفاظ نابية، فلم يكلمه أحد من المسلمين بكلمة، فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي: ألا تنكرون ما تسمعون؟- أما أنتم مسلمون!! فقال له جماعة من أهل قرطبة: امض لشغلك. وكان الإفرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولا لايذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء، وجمع أهل قرطبة مالا كثيرا للإفرنج وسألوا القاضي ابن

ذكوان أن يدفع اليهم مال الأحباس (الأوقاف) المودع في مقصورة الجامع فامتنع عليهم فكسروا باب المقصورة وأخذوه فدفعوه الى الإفرنج(١) (الكفار)!!

وهكذا أثمرت الشجرة الخبيثة ثمارها المرة.... شجرة الانفلات من الإسلام، والذهول عن سنن الله في بقاء الأمم... وانتهت الأمور الى غايتها فتداعت الأندلس منذ عصر الطوائف وسقوط طليطلة، وحتى سقوط غرناطة التي بقيت هذه القرون تقاوم السقوط بعظمة الإسلام وجهاد بقية من الصالحين حتى حقت كلمة ربك على الأندلس حقاً وعدلا... وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم... ولله عاقبة الأمور.

د / عبد الحليم عويس

---

(١) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق كولان وليفي بروفنسال حوادث سنة ٤٠٠ هـ (جـ٣صـ٩٢،٩٣).

الملحق

العوامل العامة
لسقوط الدولة الإسلامية وعوامل نهوضها

حسب منهج كتاب: (نصيحة أهل الإسلام) لمؤلفه الإمام المؤرخ أبي عبد الله محمد جعفر الكتاني

تقديم العلامة: محمد إبراهيم الكتاني- تحقيق الدكتور إدريس الكتاني

نشر: مكتبة بدر -الرباط- المغرب

رقم المبحث	عوامل السقوط	مدلولها السياسي والعلمي	عوامل النهضة	مدلولها السياسي والعلمي	نوع العامل
١	اختلاف كلمة أهل الإسلام	انهيار القوة المعنوية	وحدة كلمة أهل الإسلام	بناء القوة المعنوية	سياسي
٢	ترك الاستعداد الحربي	انهيار القوة المادية	الاستعداد الحربي	بناء القوة المادية	عسكري
٣	ترك الجهاد	انهيار القوة الدفاعية	الجهـــاد	بناء القوة الدفاعية	عسكري
٤	إسناد أمور الدين لغير مستحقيها	انهيار الأطر القيادية	إسناد أمور الدين لمستحقيها	بناء الأطر القيادية	إداري
٥	مصافاة الكفار وموالاتهم	انهيار العزة الإسلامية	عدم موالاة الكفار	بناء العزة الإسلامية	إسلامي

رقم المبحث	عوامل السقوط	مدلولها السياسي والعلمي	عوامل النهضة	مدلولها السياسي والعلمي	نوع العامل
٦	اتباع عوائدهم ومذاهبهم وقوانينهم	انهيار الشخصية الثقافية	رفض عوائدهم ومذاهبهم وقوانينهم	بناء الشخصية الثقافية	ثقافي
٧	الإضرار بالمسلمين بالتسلط والظلم	انهيار العدالة والشورى	خدمة المسلمين بالأخوة والإحسان	بناء العدالة والشورى	قانوني شوري
٨	الاشتغال بالطرب وتبذير الأموال	انهيار الطاقة الانتاجية	القيام بالأعمال الجادة والتنمية الاقتصادية	بناء الطاقة الانتاجية	أخلاقي اقتصادي
٩	الإعراض عن العمل بالكتاب والسنة	انهيار الشخصية الأخلاقية	العمل بالكتاب والسنة	بناء الشخصية الإسلامية	إسلامي
١٠	التجاهر بالمنكرات والمعاصي	انهيار الشخصية الأخلاقية	الاعتصام بمكارم الأخلاق	بناء الشخصية الأخلاقية	أخلاقي
١١	ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	انهيار الرقابة الاجتماعية	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	بناء الرقابة الاجتماعية	اجتماعي

رقم الإيداع : ١٩٢٥ / ١٩٩٤م
I . S . B . N : 977 - 255 - 082 - 2

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN